قصة قصيرة
كأس و رؤوس
أحمد العدل
تصميم الغلاف : فاطمة رافت
الخازندار

كأس ورؤوس (قصة قصيرة)

الخازندار للنشر الالكتروني

****

العنوان :جوار مدرسة اللواء رفعت عاشور الثانوية- ميت سلسيل- الدقهلية
هاتف : ٠١٠٠٠٠٩٩٣٩٠

العنوان: كأس ورؤوس
الكاتب:أحمد العــدل
اخراج فني: الخازندار للنشر الالكتروني

جميع حقوق النشر الالكتروني محفوظة للكاتب/ة تحت اشراف موقع الخازندار للنشر الالكتروني، و غير مسموح بنقله أو مشاركته أو نشره الكترونيا دون اذن مكتوب من الكاتب

الخازندار

كأس و رؤوس

قصة قصيرة

أحمد العدل

هربت الشمس ملتاعة متلحفة بثوبها الأحمر الداكن وتركت السماء الملبدة بالغيوم تنذر مَنْ تحتها بهطول المطر تلك الليلة، لم ينشغل بغروبها أحد، ربما لاعتياد المشهد، أو انشغال كل مخلوق بما حمل على عاتقيه، يجر قدماه حيث ملاذه خلف الأبواب.

عاداه.. بعدما جلس من فرط التعب يتابع غيابها في حسرة، غفلته عن متابعة أيامه وهي تغيب؛ فقد خرج من داره يقصد وجه الرزاق ليسد احتياجاته و يُطعم عياله، كلما طرق بابًا قاصدًا العمل كسر عزيمته صاحبه الذي يبحث عن شاب يافع يقوى على التعب، لا رجل لعبت به الدنيا ألاعيبها حتى شاب شعره، و انحنى ظهره، و شارفت نيران عزيمته أن تُخمد، فيرى وجه زوجته إن عاد يجر خيبته في ذيله، و يسمع آنين عياله جوعًا، فيزيد من توسله لرب العمل أن يعطه فرصة و لو يوم ربما خاب ظنه، و وجد فيه ضالته، فلا يجاب إلا إصرار على الرفض بل يزيد عليها بعضهم نهر و زجر.

انتبه لسيل الدموع التي حفرت طريقها على خدّيه، لكن لم تسعفه السماء تجفيفها حيث سيل آخر قد غسلها، سيل المطر الذي لم يكفيه لإخماد نيرانه، حاول التكور حول نفسه عبثًا حيث شعر بالتعب و قد خارت قواه فترك جسده يهوي على جنبه و فتح خزان عينيه تبكي فتمتزج مع الأمطار، تذكر حاله و ما كان عليه، شبابه و قوته، ماله و ثيابه، عمله و داره، ثم مر بشريط عمره على ندمائه و ما فعلوه، من عفيف تفوح من فاه كلمات الطيب، إلى سكران طافح تلاعبت الخمر بعقله و فعلت به ما فعلت، من متصدق فاعل للخير إلى مقامر خاسر قطع من قوت أهله ليبقى على طاولة لوثها ورق! تزاحمت تلك الأحوال داخل عقله البائس تهتف في غضب، لم يسعه السكوت كثيرًا فانفجر يصرخ كمجذوب، لم يسمعه أحد سوى الطين الذي احتضنه في جلسته، داول بين ماضيه و حاضره بعض الوقت حتى تذكر أمرًا هامًا، انه زوج و له عيال، و حيث ذلك الرباط قد فقد أبسط حقوقه الانسانية.. حقه في الاستسلام!

نفض عنه همه و اعتدل في وقفته، حاول لم شتات روحه المبعثرة و الملطخة بطين

الهم كي يذهب لكوم اللحم المتعلق في رقبته، أخذ يجر قدميه و الخيبة تثقلهما، ماذا سيفعل؟ كيف يطعم عياله؟ هل يمد يده للمارة طالبًا الاحسان؟ لقد سدل الليل ستاره على صفحة بائسة من حياته و حان موعد وضع نقطة في نهاية السطر.

سترته العتمة مارا بين الأزقة خوفا أن يراه أحد في حالته تلك، حتى وصل إلى باب طرقه في وهن، لبس لحظات قبل أن ينفرج عن سيدة محتشمة نظرته و على وجهها عجب ممزوج بحسرة من حالته، فسألت في حزن:

"ماذا حل بك؟! أين كنت لتعود هكذا؟"

نظرها في حزن دون أن يفتح فاهه، دلف يجر خيبته وراء ظهره فلم تتبعه و تركته يستجمع شتاته لبعض الوقت، ذلك الرجل الذي كانت عودته لتلك الدار مبعث للفرح، و تلك الدار الشعثاء المقفرة الخالية من أوجه النور، الخاوية من أثاثها، و التي كانت في زمن مضى تشع بهجة و تحيطها الألوان من كل جانب، باغته عياله من خلف باب يهللون فرحًا بعودته، إلى أن نظروا هيئته حتى بُهتوا و أمتقع وجههم بالخيبة، يتضوروا جوعًا منتظرين أباهم ببعض الطعام ليسد حاجة أفواههم التي لم تهنأ منذ الصباح بكسرة خبز، باغته صغيرهم بسؤاله:

"أبي.. لقد تأخرت كثيرًا! أنا جائع منذ الصباح".

إن معاناة الإنسان الحقيقة هي وقوعه فريسة للخوف من المواجهة، و ما يجعلها أمر شاق أن تحمل على عاتقك من تعوله، حينها تصبح الحياة موحشة و خطواتها موحلة، كلما شعرت أن هناك من يعول عليك همه، و قد سلب منك حق المقامرة في مواجهة الدنيا، من سلب منك حق الاستسلام، من سحب منك يدك التي ترمي نرد الحظ بالمخاطرة، فقد كان طول نهاره يجوب الطرقات و على عاتقه صوت عياله الجياع، و دموع زوجته التي انقسمت ما بين صوتهم و بين رثاء حال بعلها العاجز و الذي فعل به الدهر ما فعله و أظلم وجهه بغيوم قلة الحيلة.

وقف عاجز عن الرد، لم يملك حتى حق الانكسار في تلك اللحظة فلا ذنب لهم و لا يد، إن حياة الهُمَّل التي يعيشها بلا عمل قطعت يد كان عليها أن تقدم لهم أقل ما يطلبوه، أو تربط على أكتافهم، لكنه لم يستطع فعل شيء إلا الهرب.

لم يتمالك حاله و فر هاربًا من داره في جوف الليل، خرج هائمًا بلا وجهة يقصدها، لم يرى من عتمته ما تخفيه تلك الطرقات الخاوية من العوام و المكدسة بريح الشح، ظن العتمة هي الحاجبة، لكنه فطن أخيرًا أنها عتمة خلَّفتْها الضمائر، أمسى هنا قوم قيودها الاِتضاع، و بالطرف الآخر قوم سكنوا الاِرتفاع، و ما أن ركب الطريق حتى نظر إلى السماء صارخًا « اللعنة.. اللعنة عليّ»، باغتته السماء بغيث منهمر كأنها تبكي على حاله و حال عياله البؤساء، كانت قدماه تجري تقطع الأرض خطوة تلو أخرى و لا يدري إلى أين، لكنها قادته إلى بيت الشيطان.. الحانة.

دلف يتخبط بالسكارى ينظره من بقى منهم على وعييه نظرة عجب لما حل به من أفعال، ثيابه الرثة الغارقة بماء المطر جعلته لا اختلاف بينه و بين المجاذيب و عابري السبيل، لكنه لم يكترث لنظراتهم حتى، أخذ يمر بناظريه بين المترنحين المتخبطين، لكنه توقف فجأة حيث طاولة قد جلس عليها جماعة يعرفهم، ربما قد وجد ضالته التي أتت به إلى هنا، تمالك نفسه و تقدم نحوهم و ما أن بلغ مجلسهم حتى وضع يده على كتف الجالس أمامه الذي التف نحوه في ضجر، و ما أن نظره تعجب من هيئته، قاطع نظرته المتعجبة في طلبه الحديث معه منفردًا فلباه:

" أريد بعض المال كي أطعم عيالي، لم يستقر في جوف أحدهم كسرة خبز منذ أمس، و لا أظنك رادًا لطلبي، و لا مستهين بحاجتي، فأسد لي معروفًا بحق صحبة بيننا".

كان الرجل يطالعه من منبت شعره حتى اخمص قدميه و على وجهه علامات البله التي قد خلفتها الخمر، قبل أن يضحك و هو يسحب يده نحوه الطاولة كي يجلس قائلًا:

" تعال يا رجل نشرب و لا تعكر صفو ليلتنا.. هيا هيا"

زاد حنقه ما سمعه، حتى جذبه من كتفه فارتطم بصدره المبتل و هو يقول:

" أتيتك طالبًا معروف لأسد جوع عيالي، و أنت واقف تهزي و لا تبالي، نسيت ما كنت عليه في أيام جمعتنا طاولة الحظ و الخمر و الورق بيننا، و اليوم تسخر من سؤالي! إن لم توفي حق صداقتك اليوم فمتى أنت فاعل؟!»

لم يدرك و هو يحدثه أن من يقف أمامه ليس سوى مسخ قد لعبت الخمر بعقله ألاعيبها، و غاب عنه ادراك مصاب ذلك البائس، لم يشعر بما لم تمسه يداه – حتى الأن – من حاجة بما يدثره في ثيابه من نقود تدفع ثمن مزاجه و نزوات شيطانه، لكن ما انتبه له هو أن ثيابه المهندمة الناعمة قد لخطتها مياه صدر رفيقه السابق، ليصيح في وجهه قائلًا:

"ويحك ماذا فعلت؟! لقد اتسخت ملابسي بوسخك، و ابتل صدري ببللك" فدفعه عنه قبل أن يستطرد:

"كنت تجالسنا لأنك تملك حينها قوت مزاجك، كنت نديمك نقرع الكأس و نتمايل مع الغانيات، لم نسرق مالك الذي خسرته و أنت تقامر على تلك الطاولة، فلا تحملني سوء فعلك، و لا تسألني قوت عيالك، و قد عرضت عليك الأن مجالستنا و أنت بحالك تلك، و ثيابك البالية المتسخة كأنك كنت تعاشر البهائم في زريبة، و قد رفضت كرمي و عطفي، فاذهب من هنا و لا تعد، فأنت لست خل لنا».

زاد ما سمع غضبه و بلغ حده بعد أن دفعه في صدره كي يغادر، لم يتمالك نفسه و قد أعماه الغضب الذي اشعل رأسه فأخذ ينظر حوله حتى وجد قنينة خمر في الجوار فأمسكها، و دون أن يعي أخذ يضرب رأسه نديمه المترنح ضربة تلو ضربة و هو يصرخ « تبا لك.. تبا لك..!» حتى انتفض عليه من كان منهم على وعي يدفعوه بعيدًا، لكنه أكمل ضرباته حتى بدأت خيوط الدم تنفجر من رأسه و تتدافع قبل أن يسقط أرضًا.

تملكه الغضب الذي إن ختم على عقل انسان أعماه عن فعله و الصواب، لم يدرك فعلته لكنه بعد أن شعر بالأيادي الملتفة حوله تقيده، أخذ يصارعها بحثًا عن الهرب الذي كان سهلا وسط كومة السكارى الملتفة حوله.. و فر هاربًا.

اجتمع على رأسه شخصان، أحدهما يبرر فعلته و الآخر يستنكر، ظل يركض و المطر ينهمر من فوقه و كلما تمالك حاله سقط على الأرض المبللة فنهض و هو ينظر خلفه مرتعبا، ساعده الليل و سترته في الاختباء بعيدًا عنهم حتى وصل إلى خرابة متهالكة دلفها في سرعة و هو يتلصص حوله عن أحد قد تبعه، انزوى في ركن داخلها يحتمي من المطر يحاول التقاط أنفاسه، أنكبَّ بوجهه و هو متكور بين فخذيه و البكاء ينهك مقلتاه، قبل سويعات كل رجل يحمل هم اطعام عياله، و الأن أصبح آخر يبحث عن ملاذ يهرب إليه"

عاد ليتذكر عياله و زوجته التي لم تنهره بقول أو فعل، مع سوء تصرفه و انصرافه في طريق اللهو و السُكْر، غير أنه جردها حليها و زينتها، خدمها و حشمها، حتى ثيابها باتت سلعة مباعة في الحوانيت، الا أنها كانت صابرة بارة، و على البلاء قادرة معينة، لم تغادر بيتها يومًا، و لم تفضح أمره بين أهلها، و إن سألها سائل تغاضت و أوردت أن الأيام دول فيوم لك و يوم عليك، لقد ساء عمله و خسر تجارته و الله قادر على رزقه برزق عياله، فقد بكى صبرها و تحملها ليال طوال حين عودته مخمور يهذي، و كل ما كان في رأسه ملذاته و شهواته فكانت تلبيه مطيعة، و في الصباح لم تحادثه مرة في أمر ليلته، لكنها كانت دائما ما تدعو له بالهداية و العودة على ما كان.

لم يشعر بحاله و بوقت قد قضاه في تلك الخرابة ينتحب و نسى أمر كان عليه فعله، لن يستطيع المكوث هنا طويلًا فقد قضت عليه فعلته أن يهرب، لكن إلى أين؟! لقد فقد بيته كملاذ يروح إليه، و لا يأمن صاحب بعد اليوم على سره و قبح فعلته، و ها قد ترك من خلفه كومة لحم كان قد خرج يبحث عن اطعامهم، لكنه نظر السماء الماطرة يناجي ربه الذي خلقهم ليرحمهم و يعين زوجته على ما ترك، فاتخذ من سترة الليل

عباءة يختبئ تحتها ليغادر المدينة إلى الخلاء، لم يكن سبيلًا سوى غابة مجاورة يلجأ إليها، لم يحسب حساب وحوشها الجائعة، و لا زواحفها الهائمة، و لا أمر شريد جائع قد يهم به ليسلبه ما يملكه، بدأ يخطو نحو طريق سواد نهاره أحلك من عتمة تلك الليلة.

ما أن بلغ مشارفها حتى وقف ينظر لأشجارها و قد بدأ الفجر يفتح ستائره لمرور النور قبيل شروق الشمس، و حتى مع انفراج نور السماء إلا أن قدماه بدأت تترجف على الأرض خوفًا و رعبًا من مصير يجهله، توغل داخلها يتلفت حوله لكنه على الرغم من ذلك بدأ يشعر بالجوع، حتى مع مصابه و ما لقى في ليلة ظلماء إلا أن الجوع شعور لم يستطع كبحه، بدأ يلقف بعض الحشائش التي ميزها وسط طريقة تصلح كوجبة، إلى أن وجد نخلة سقط من عليها بعض الرطب، هرع في التقاط ما وجده و بدأ يأكلها كرجل كهف بدائي تدفعه الهمجية نحو التهام ما يجده، انشغل في التقاط ثمرات الرطب و ما وجده معها و دس منها في ثيابه مؤنة ليومه، خلال انغماسه في جمع ما استطاع جمعه، و اخفاء ما اتسعت له مخابئ ثيابه لم ينتبه لذلك الصوت القريب منه، لكنه انتبه حينما شعر بشيء صلب حاد قد لامس رقبته فأفزعه قبل أن يقفز دون شعور أرضا ملتفتا خلفه ليجد ما صدمه.

"ما كان عليك أن تغفل وجود الضواري و خوافي الأحراش أثناء جمعك الرطب، لن تعطيك تنبيه قبل أن تصرعك"

ارتعد من ذلك الصوت الأجش الثابت لرجل ضرب الشيب رأسه مفتول البنية يحمل فأس، بدا منذ الوهلة الأولى أنه من ساكني الغابة من هيئته و لباسه و طول لحيته الكثة، قطع حالته أن مد الرجل يده ليوقفه، تردد قليلًا لكنه استجاب فأعطاه كفه يساعده النهوض قبل أن يستطرد:

"لا يأتي تلك البقعة إلا هاربًا، و هيئتك تدل على ذلك بوجود بقع الدم الممزوجة بالماء و المتناثرة على بدنك الذي يخلو من آثر الجروح، ضاقت بك الأرض فوجدت هنا مهربك، و في الأحراش مخبأك، و إني أود أن استمع بما أتيت من خبر»

كان لصوته رهبة على الرغم من هدوء أفعاله و ثبات أقواله، لم يكترث حتى لرد فعل من ذلك الغريب المرتعد، و ما أن أفلت يده حتى عاد خطوة للخلف يمهله قليلًا يستجمع حاله، ما أن طال انتظاره و التحديق سائد بينهما قاطعه حينما قال:

"عليك أن تنتبه إلى ظهرك و أنت تسير، لا تذهب يسار الأحراش فهناك ما يصعب عليك درؤه و لا الفرار، غادر للخلاء الذي قدمت منه قبل غروب الشمس إلا إن وجدت مكان تأمن فيه على نفسه.. إن وجدت".

ثم التفت و تركه وراء ظهره يعلن انصرافه، لكنه استطرد دون أن يقف قائلًا:

"اتيت هنا فاقد الثقة، و لا عجب أنك أتيت، فما رأيته في تصرفك خير دليل" ثم غاب عن نظره.

أصبح لا شأن له إلا المسير، لم يكن له بُد من أن يكمل حيث اختار، لكنه مكث عند كلمات ذلك الغريب طويلًا، ، استُطير قلبه خوفًا من تحذيره و ما كان عليه إلا المضي نحو طريق يجهله، نهض و لا زالت عيناه شاخصة نحو بقعة قد اختفى بعدها ذلك الرجل، ثم بدأ ينظر من حوله إلى طريق يسلكه ربما وجد مكان يأويه، أو كوخ يحميه! فبدأ يسير عكس الطريق بخطوات مرتعدة، و كلما هبت ريح ارتعد لها قلبه قبل أن تهتز لها وريقات الشجر.

طال سيره و بحثه عن ملاذ يأويه، فشعر بالتعب و الظمأ أيضا، تلفت حوله فوجد على مقربة منه شجرة وافرة ممتدة قصدها فجلس تحتها يستريح، و ما أن جلس حتى ارتخت عيناه من التعب و غفت، و اسلم جسده المنهك إلى النوم.

لم يهنأ كثيرًا بغفوته إذ سمع صوت قوى يمر من جانب أذنه، و ما أن فتح عينه حتى وجد ذلك الغريب على يساره يمسك بأفعى قد قسمها نصفين بفأسه، انتفض من مكانه و هب واقفا يرتعد فاحتمي بجذع الشجرة و لا زالت عيناه تتابع الرجل.

اقترب منه الغريب و هو يلوح الأفعى مبتسمًا فقال:

"يا فاقد الثقة.. لا تأمن مكان جديد قد وطأته قدماك دون أن تقدّر شره، و تعي أمره، فالأحراش مأوى للوحوش الضارية، و الزواحف الخفية، التي إن نالت منك صرعتك بلا رحمة، فهي بلا عقل يفهم، تحركها غريزة الجوع، و أنت بهوانك و حزنك غير مدرك لذلك، فأرحل من هنا قبل أن تصبح وجبة لأحدها».

استدار ليغادر بعد أن بلَّغ رسالته، و قضى مهمته، بعدما أنقذ حياته، و لقنه درس ربما غفله، لكنه قبل أن يغادر بعيدًا أتاه من خلفه صوت مكسور لرجل فعلت به الدنيا أفعالها في حزن يسأله:

"لقد فقدت الثقة في من حولي، من أمنتهم على مالي و بيتي و عرضي و قد صفعوا وجهي بما لم أحتمل، أنت اليوم قد أنقذت حياتي دون أن تعرفني، و نصحتني على عكس ما يفعل الخل لخليله في زمننا هذا، فرفعت عنى الأذى، و أنا مدين لك بهذا الصنيع و إن عطفت عليّ و اتبعتك لأكون من الشاكرين.»

نظره ثم رفع رأسه للسماء لبضع ثوان ثم رفع فأسه على كتفه و عاد ينظر لذاك الحزين و قال:

" ما فعلته ليس بأمر غريب في حق ضيف لجأ يحتمي بداري، و أنت تراه صنيعًا جليًّ لأنك لم تعهده من بشر في حقك، و لم يحفظك خل في رحلتك كما تبين ليّ من حديثك، يا ابن أمك و أبيك عليك أن تعلم أن الدنيا دار علم و معرفة، و ما نحن إلا عابرين طريقها نتعلم مما يدور علينا من خيرها و شرها، و العاقل من يحمد خيرها، و يصبر على بلائها و شرها و يزيد الخالق حمدًا».

اقترب منه ذلك البائس حينما استراحت نفسه لتلك الكلمات، و ربما احساسه براحة للشخص ذاته، فانحنى له تقديرًا و مد له يده يصافحه و الدموع تنسكب من عيناه، فأمسكه و ربت على كتفه حانيا حتى لا يزيد بكاؤه ثم قال:-

" انك تحمل بداخلك ما فاضت به نفسك و اغرورقت له عيناك دمعًا، و إني و إن كنت غريبا فنحن في مكان غربة و قضت الدنيا أن تتبعني على أن أساعدك بما لديّ كي أرد لك نفسك، و أطبب جرحك، لعل الله أرسلك هنا برسالة لأحد منا، فدعني أصحبك إلى كوخ يأويني نتقاسم ما لدي من طعام و شراب و تنال قسط من الراحة، و من بعدها يفعل الله ما يريد».

تبعه دون أن يتكلم أحدهما! و الدليل يشق طريق يحفظه نحو مكان يمكث فيه، كان في اتباعه غير مهتم بأمر الأحراش و ما فيها فهناك من درء الشر عنه من قبل و لا برح يفكر كيف يرد دين ذاك الرجل الذي وهبه فرصة أخرى للعيش على الرغم من كل أمانيه بالموت بعد ما ألت إليه صروفه، لم يطل التفكير حيث أعلن المضياف وصولهما لكوخ صغير اتخذه بيتًا له، وجد أمامه كومة من الحطب و فروع الشجر اليابسة لكنه يجهل أمرها، هل يجمعها للتدفئة أم لبيعها؟! لكنه لم يشأ سؤاله عن ذلك الأن حتى لا يكون ضيفًا ثقيل بسؤاله.

دلف الرجل كوخه و رحب به في مكان اقامته الفقير بابتسامة و طلب منه الجلوس، انتقل الضيف ببصره في اركان كوخ مربع الأركان خالي من سبل العيش إلا فراش من خشب قد صنعه و منضدة صغيرة و كرسي صغير مصنوع باليد أيضا، و هناك بالطرف المقابل صندوق خشبي مغلق و جواره آخر أصغر حجما و قِربة ماء معلقة على جداره، هنا أشار المُضيف لضيفه أن يتخذ الكرسي مجلس له لكنه تردد حيث لا مكان آخر لصاحب الكوخ يستريح عليه، لكنه أشار له بتنفيذ طلبه حتى لباه.

جلب له بعض الخبز و السمك المملح، ما دل أن هذا الرجل ينزل المدينة يبتاع قوته بمال من بيع الخشب أو بالمقايضة، اضاف بعض الثمار و الرطب، ثم جلب له الماء كي يشرب و بدأ يطعمه حتى شعر بالشبع، نظر لصاحب الكوخ الذي صمت دون حرف حتى انهى طعامه و جلس يتابعه ثم عرض عليه الراحة ان أرد، فقال الضيف:

”لا تعلم شيء من أمري و رأيت هيئتي و بعض الدم يلوث بدني، درئت عني شرًا و صحبتني إلى مأمنك الذي تحتمي به، أطعمتني من طعامك، و أسقيتني سقياك، و عرضت عليّ بعض الراحة في فراشك، و أنا رجلًا غريب لم أعتد على ذلك الكرم من أحد، فكنت أعطي و لا أطلب، كنت أعين و لا أرفض، كان لدي من الدنيا كل شيء و لم ينقصني شيء، و اليوم أن مُهمل معذب فار من أهلي و داري، و لقيت منك ما لم أعهده من شخص قبلك، فلا أريد أن أكون عليك حملًا فوق أحمالك، و لا أود زيادة أثقالك، فهل تظن أن راحتي في نومي؟!»

فنهض صاحب الكوخ متقربا منه واضعًا يده على كتفه و قال:

”لقد رأيت في دموعك نقاء قلبك، و لمست في صمتك أدبك، و علمت من بعض كلامك منبع جرحك، إن حقيقتك هي الجانب النظري من حياتك إنها ما يفترض أن تكون عليه بينما واقعك هو الظاهر الذي يتدخل في تشكيله كثير من المتغيرات الخارجة عن ذاتك، جئت هنا و على عاتقك ما أرهقه، مما جعل واقعك كشريد يطرق الأبواب يستطعم أهلها، لكنك غير ذلك! و أنا مررت في تلك الحياة بالكثير جعلني استقرأ من حولي و أعي دواخله، فأنت هنا كصاحب الدار حتى مع جهلي بك و ما جئت به، و إني لمستمع لخبرك وقتما أردت“

نظره بعدما وصفه هكذا، سمع ما لم يسمعه من قبل، و رأى من حكمته ما جذب انتباهه و راحته، فما كان منه إلا أن وقف الحزين احترامًا له و تقدم صوبه يقول:

”لقد شعرت في كلامك ما لم أشعره، و رأيت من فعلك ما لم أعهده، كأنك طرح غريب في تلك الأرض لم تنبت مثله في وفور عقله و لا في هيئته، فإني أرى أنك قد لقيت من الدنيا و مصابها ما جعلك تشبه الأولياء، و في رجاحة عقلك من الحكماء».

نظره صاحب الكوخ في صمت و لم يتحرك، فقد لاحظ بعينيه انكسار رجل لم يشاء فضحها أمامه، لكنه أثر الصمت و تركه يكمل قائلً:

"أنا شخص قادته الدنيا إلى هلاكه، بعدما أضعت ليال في كأس و غانية، و أهدرت من مالي على طاولة حظ لاهية، فتملك الشيطان عقلي و منعني العودة، أمسيت ظالمًا لزوجتي التي لم تتأفف مني و رائحة الخمر تفوح مني كل مساء، ذهبها و لباسها بضاعة عند الراهنين في الحوانيت، حتى أجالس رفاق السوء نشرب و نلهو، ظننتهم عوضًا و سندًا، و قد أضعت أيام عزي و قوتي على كأس تقارعه رؤوس لاهية»

سالت الدموع من عيناه كأن السماء أمطرت و بدأ جسده ينتفض و يهتز، فربط المضيف على كفه كي يهدأ، لكنه لم يتوقف حيث أكمل مستطرد:

"و ما إن اشتدت بي الحاجة و سألت أقربهم عن شيء أطعم به عيالي تهكم على مسألتي، و زاد من غضبي و سخطي، فما شعرت نفسي إلا و الدماء تسيل من رأسه قبل وقوعه أرضًا، و الله أعلم إن كان حي أم هلك، و بعد أن كنت طامعًا في قوت عيالي، أمسيت قاتلًا هاربًا بعد أن فعلت ما لم أحسبه و دفعني الانتقام تحت أقدام القدر كي أكون من الهالكين، أو من المعذبين».

زاد من نحيبه و رثاء حاله، فدفن رأسه بين كفيه كما تفعل النعامة برأسها في الرمال، فوقف مضيفه و أمسك يده مرة أخرى حتى يرفع رأسه، و بدأ يمسح دموعه و هو يقول:

" أن يكون الإنسان نقيًّا ليس فضيلة، لأن الحياة مدججة باللؤم و الخديعة، وحالما يحدث احتكاك تُخدَش روحه ويتصدع له زجاج حياته؛ آنذاك يكفر النقي بالحياة ويطمع أن يكون له أنياب ومخالب ليتقي أذاها ويدفع عن نفسه شرّها ويفوز بلذّاتها! لكن هيهات أن ينال ذلك، فلا مجال ليتحول الإنسان لحيوان يأكل الأموات»

أخذ يستمع بإنصات لكلام صاحب الكوخ، كلماته كانت تمر عليه بوقع غريب، كأنه في حضرة حكيم يعطيه من رحيق الدنيا و ما جمع، حينها شعر في قرارة نفسه أنه قد أضاع عمره في لهوه و جهله مع خليل ضال، و انه بعد ما فاته من العمر لم يتعلم من

تلك الحياة شيء، فأكمل استماعه في توقير لذلك الرجل الذب استطرد:

« أرى طيبك و براءتك، و ما كان منك ليس إلا شيطان تلاعب بك فأنساك طريق ربك، و غفلت عن دارك و عيالك، لكنك اليوم نادم و تبكي ما اقترفته يداك، و لست غافل عن خطاياك، فعليك العودة لربك أولا، و ان شئت أن تساعدني في عملي، نقتسم خبزه بيننا، ربما يساعدك ذلك اطعام صغارك»

نهض الحزين يخالجه بعض الفرح، مع حزن على ما فاته من عمره في رفقة صحبة ضالة، شعر أن قطار حياته قد دهسه تحت عجلات اللهو و أضاع من عمره في ظلمة الجهل ما جعله يندم على اختياره خليل خاطئ في وقت عزه، و تقدم نحو صاحب الكوخ و على محياه علامات الارتياح فسأله:

"من أنت يا سيدي؟! و ما قصتك؟ كيف دارت بك الأيام لتصبح هكذا؟! اني أراك شخصًا نقيا، يطيب لسانك بذكر الله تقيًا، و اني ترددت كثيرًا في سؤالك عن شخصك الكريم مليًا، لكن دعني قبلها أحدث أمر في نفسي! ليت ما حدث قد حدث في شبابي لأصحبك و أنهل من علمك، لكن لا تأتي الريح بما تشتهي السفن، فهل تمانع أن تحدثني بسيرتك و ما فعلته بك الدنيا لتعتزلها؟»

نظره صاحب الكوخ و لم تبدو عليه أي أمارات الدهشة كأنه توقع سؤاله، و من الطبيعي أن يفعل فهو غريب عنه لا يعرفه، فحق عليه أن يسأله عن خبره أيضا، فطلب من ضيفه الجلوس قبل أن يبدأ حديثه و قال:

"قبل أن أقص عليك من خبري ما تريد؛ سأحدثك في أمر عليك فهمه، لقد اخترت العزلة بعد ما فعلت بي الدنيا أفعالها، و ضربت صدري بسياطها، أتيت هنا لأتدبر أمرها، و أذكر خالقها، فزهدت الناس جميعًا، الوحدة شاطئ هادئ تستقر إليه سفينتك بعد رحلة العمر بين مد و جزر، بين أمواج و أعاصير، تتلاعب بك فما أن تشعر بالغرق تحاول الوصول لمرفأ تحط عليه و تنزل أشرعتك، انها بداية النهاية، و هامش الحكاية،

يريدها العاقل لحساب نفسه»

جلس الضيف يستمع إلى ما يقص في انتباه، لكنه شعر بالظمأ فرقع الماء على فمه يشرب و هو لا يزال ينظر صاحب الكوخ الذي استمر في حديثه قائلًا:

"إننا جميعًا مرسلون.. نعم لقد أرسلنا الله في هذه الدنيا برسالة أساسها أن نعبده وحده، و نقدس اسمه الواحد، و خص كل رسول منا برسالة أو ربما أكثر لمن حوله فمنا من عمل برسالة ربه! و منا من تبع هوى الدنيا و غفل عنها فكان للشيطان وليا.»

التفت صوب باب الكوخ ففتحه ثم نظر إلى السماء قليلًا، ثم عاد يكمل:

"لقد كنت في سفري من الغافلين! فلا تحسبني زاهدًا عابدًا في شبابي، لكن الله اختبرني و خصني بابتلاء قد قسم ظهري ليعيدني طريق الرشد، فكانت لي زوجة جميلة، صفاتها و طيبها زاد جمال محياها، و أنجبت لي ابنة بارة، شابهت أمها في خلقها و هدوءها، لم أحمد ربي على تلك النعمة، و كنت كثير اللهو بالنساء، لم أترك زهرة يافعة في طريقي إلا قطفتها و نهلت من عطرها"

التفت إلى الضيف و عيناه ملأتها الدموع قبل أن يكمل:

"حتى وقعت في فتاة عاشرتها فحملت في أحشائها نطفة مني، فما أن شعرت بالأمر هرعت إليّ تستنجد، قبل أن يفتضح أمرها، و يعلم أهلها خطيئتها، فما كان مني إلا نكران الأمر، صرخت و كاد يفتضح أمرها فصفعتها على وجهها حتى سقطت أرضا و سقط معها حملها، فذهبت معها إلى قابلة كنت أعرفها حتى تستر أمرها و فعلت، لكن الفتاة لم تترك دعاء بالقصاص مني إلا و تضرعت به للخالق، حتى استجاب لها ربها و ذات ليلة مرضت ابنتي بالحمى، و تبعتها زوجتي في نفس الليلة، حاولت أن أبحث عن طبيب ليلًا دون جدوى، و بعد تعب شديد عدت إلى داري بعد أن سحب الله هبته لي، و أخذ أمانته، زوجتي و ابنتي فارقتا الحياة.. فكان ذنبي».

ضرب العجب عقل الضيف في شدة مما سمع، لكنه حاد عن عجبه حينما رأى صاحب الكوخ يبكي في حرقه و قد صعد وقع صوته، و ارتعد جسده حينما قال:

"لقد زنيت بفتاة بريئة و كانت مرة واحدة أقترف ذاك الذنب، فعاقبني الله أن أخذ حلالي، و فلذة كبدي، كنت في الطرقات أهذي، حتى افتضح أمري و علم الناس سري، فاتخذت من دار الوحوش مسكن، أعاقب نفسي على خطاياي و غفلتي، فزهدت الدنيا و عدت إلى الله تائبا و محاسبًا نفسي على ذنبي، لعل الله يغفر لي و يتوب.»

أسرع الضيف نحوه بعد أن نهض من مجلسه، أمسك بها معتذرًا عن سؤال أرهق صدره، و فتح جرحه، و جعل عيناه تدمع و نفسه تجذع، لكنه تمالك حاله سريعًا، و أكمل في ثبات مصطنع قائلًا:

"علمت من خبري ما لم أحدث به أحد قبلك، و لم يرى حقيقتي سواك، فمن تراه زاهدًا حكيمًا، تحت عباءته عربيد متسكع ضل طريقه في صغره، عاقبني الخالق على لهوي، و اختبر صبري، حتى عدت من النادمين».

ترك يده و سحب نفسه خارج الكوخ فأمسك فأسه، و بدأ يقطع أخشابه دون أن يتكلم أو ينظر ضيفه، لكنه التفت صوبه فجأة قائلًا:

"هناك في جانب الكوخ فأس صغير، احضره كي تساعدني"

فرح الضيف لذلك و أحضر الفأس، بدأ يفعل ما يفعله، يضرب الجذع يقسمه و هو يبتسم، لقد تعلم من ذاك الرجل في وقت قليل كثيرًا كان يجهله، أعانه على حزنه و دبر له شيء يطعم به عياله، جعله يستغفر الله على ذنبه و لهوه، و ندم على وقت أضاعه في جهل، و رفقة تضيع العقل، فاجتهد معه، و عمل على مساعدته بكد، قاسمه كوخه و طعامه، و أخذ يتعلم منه و شاركه التمعن في صروف الدنيا، شعر بنور قد أضاء صدره.

مكث معه بضع أيام يعمل، ذات صباح خرج صاحب الكوخ يحمل الأخشاب متجهًا

نحو المدينة لبيعها، و يعود ببعض الطعام و بعض المال لرفيقه يعود بها لداره، غاب بعض الوقت و قد مر على ذلك البائس كدهر دون رفيقه الجديد، و ما أن عاد تهللت أساريره و انشرح صدره، حياه بعد أن نهض يتحسس خبره، ساعده في وضع ما جلب و تركه يلتقط أنفاسه، كان يشعر بوقع غريب في صدره، كيف سيعود لعياله و زوجته بعد بضع أيام بلا خبر، و ما فعلته بهم الدنيا، كان على علم أن زوجته ستدبر الأمر من أهلها حتى عودته، لكنه الأن عاد ليشعر بوقع غريب مع اقتراب موعد عودته لهم.

بعد أن نال صاحب الكوخ راحته، و رتب أغراضه، وقف ينظر إلى ضيفه الشارد ذهنه، حاول لفت انتباهه ليرى ما بداخله فقال له:

"تشتاق لدارك و أهلك، إن أعظم هبات الخالق لعبده نسل من صلبه، يعلمهم من الدنيا ما تعلم، يهتم بهم، يشد من عضدهم ليصبحوا فرع قوي يواجه ريح الدنيا دون خوف، بعد أن حرمني الله هبته و انقطع نسلي! عليّ أن أخبرك بذلك حتى تحمد الله على نعمه، و تسعى في الحفاظ عليها بقوة إن أمهلك الله، سأذهب معك حتى دارك، إن شئت أن تعود لعملك معي سأكون من الحامدين على صحبتك، و إن فضلت أهلك و دارك فتلك حياتك و سوف أدعوا الله لكم".

اغرورقت عينا الضيف بما سمع، لكنه لم يفتح فاه بكلمة و نهض يستعد ليغادر الكوخ، ما أن ركبا الطريق حتى بدأ ينظر للأحراش عكس نظرته الأولى، ربما لأنه وجد الأمان في رجل سند ظهره، و علمه من خبر الدنيا الكثير، حيث لم يخبره أحد من قبل ما سمع، كان كأس الدنيا في يد خل لا يؤتمن، و أبحر في رحلته بين رؤوس غرتها الدنيا بمتاعها، و اليوم لا يعلم هل كأسه لا زال فيه شربة تسقيه؟! أم أن كأسه كُسر في الحانة.

كانا يتابعا سيرهما في وضح النهار يخترق بلدته، لم يبالي بنظرات العامة له، يسير و إلى جواره خله الجديد لا يكترث لشيء إلا رؤيته عياله، لم يستغرق الكثير و هو غارق في تفكيره و لقاء عياله، فبلغ داره و قبل أن يتقدم أوقفه خليله قائلًا:

”اذهب أنت لعيالك، و أنا سأنتظر هنا عودتك قبل الغروب إن أردت العودة“

أومأ برأسه متفهما مبتسمًا بعد أن طلب منه الدخول معه لكنه رفض و أخبره أن هذا وقته و وقت أهله فلا يجب أن يكون بينهم، بدأ يتقدم نحو باب داره و قلبه يدق كطبول الحرب، و ما أن بلغ داره سمع جلبة من خلفه و صوت يقول:

”القوا القبض على هذا الشقي، بأمر من الوالي أنت مطلوب بتهمة القتل العمد«

نظر خلفه ليجد الجنود تهرع صوبه، نقل نظره لخليله الذي وقف يتابع ذلك في حسرة دونما حركة، ثم نظر خلفه ليجد باب داره مفتوح و بزغ منه زوجته و طفله الصغير، شعر بأن قدماه تخشبت مكانها و لم يعد له مفر، فقد علم أن كأسه قد كُسر بين رؤوس أيام لهوه..

تمت